

الأحد الخامس - مريم المصرية

مرقس 10 : 32- 45

تُظهر حياة هذه البارّة حقيقة عميقة في الكيان البشري. كيف، كما يقول قنذاق الأحد: "أنك كنت أولاً متوحلة في الأنداس... لكنك ضارعت بعدها سيرة الملائكة..." نعم هذه طبيعة الإنسان، و ذلك بفضل حرّيته يمكن أن يصير ملاكاً أو ينتهي إلى كائن حيواني متوحش. يقول المغبوط أوغسطين: "يمكن للإنسان أن يصير جسدياً حتى روحه أو روحياً حتى بشرته". حياة قديسة هذا الأحد تعطينا مثلاً على هذين المشهدين في الإنسان الواحد.

لا يقبل الكتاب الإلهي الصراع الأنطولوجي الفلسفي بين الجسد و الروح. و لا يقبل الفلسفة القائلة بان الجسد سجن و مؤدّب للنفس. إن الصراع بين الجسد و الروح هو تضاد أخلاقي، أي التضاد الموجود بين أن " نشتهي الخليقة" أو أن " نشتهي الخالق". و الإنسان مجرّب بهذا الصراع. قلبه معرض لعشق الخالق كما لعشق الخليقة. إن اختيار الخالق عشيقاً للقلب يجعل الإنسان روحانياً، يستخدم الخليقة بعفة، و لا ينقصه حبّ لأنه ملآن من حبّ الخالق. أمّا اختيار الخليقة المعشوقة للقلب هو زنى روحي، يردي الإنسان الى مستوى الكائنات الحيوانية.

" لأنه حيث كنزك هنا قلبك" (متى 6: 21) . إن قيمة الإنسان تساوي قيمة الرغبات التي في قلبه و كرامته هي بمقدار كرامة المواضيع التي يحبها.

و ما نعينه بكلمة قداسة هو أن ينطبق ما في قلبنا على ما في قلب الله. حين يصير الله هو الشوق الوحيد في القلب الإنساني و يطرد منه كل تعلق آخر. حين لا يبقى في القلب سوى رغبة وحيدة " لتكن مشيبتك".

لا يقوم الوجود الإنساني على الولادة و النمو و حسب، و إنما على الطريقة التي ينمو فيها هذا الوجود، أي على الشخصية. فلا يهمّ أن أكون موجود فقط، لكن الأهمّ هو كيف أوجد! و السؤال المهم ليس " من أين يأتي الإنسان، المهمّ هو إلى أين يذهب؟" الغاية هي أن يصير إلهاً.

أهمّ ما في الحياة الروحية المسيحية انها تحدّد علة الخطيئة في الخلق و ليس في الخلق، أي في الحرية و ليس في الطبيعة. تبدأ الخطيئة من الروح و ليس من الجسد. السقوط الأول تمّ في عالم الملائكة، حيث لا جسد لهم. تبدأ الخطيئة من الذهن و تعمل في الجسد و ليس العكس. الخطيئة هي إساءة من الروح تجاه الجسد، و ليس العكس. لم يُخطئ آدم لأن جسده أرغمه، بل لأن روحه تكاسلت تجاه الحب الإلهي، عندما اشتتت العالم بدل الخالق.

لذلك نقول بأن بداية الحياة الروحية هو " معرفة الذات"، أي التعرّف على ما في القلب من أشواق؛ و التحديد ما يجب على هذا القلب أن يحبّ أو أن يرفض. إيماننا أن العشق الحقيقي الأصلي هو للقلب البشري هو الإلهيات و ليس الدنيويات. و تعلق الإنسان بما هو " دوني" هو دليل على تضليل للقلب مسبق.

يقول القديس غريغوريوس النصيصي: " إن القلب ميّال بالأصل الى أصله، أي إلى الله". لذلك فإن حياة مريم المصرية ليست حالة شاذة و لكنها معروفة و هي كثيرة في التاريخ البشري، حيث رمى فيها

البشريون كل متطلبات البشر. و رغباتها بعد انغماس رهيب في الأوحال، و من ثم " تطايروا بالعشق الإلهي" دون عودة.

من هنا نفهم لماذا عند القديسين رجاء لا يتزعزع حتى في أكبر خاطئ! سبب هذا التفاؤل ، حتى في الحالات التي تبدو للعين البشرية معدومة، هو ان الخطيئة هي حالة انحراف للقلب و ليست طبيعية؛ هي دليل العنف الممارس على القلب الذي سببى يشتهي حرته التي لن يجدها إلا بالتقاط الحب الإلهي عشقاً له.

لا يحيا القلب الإنساني على " الخبز " فقط بل يحتاج الى " كلمة الله ". الإنسان ليس مجرد مستهلك للعالم، كما قاده العالم لأن يؤمن، بل خالق ثان بمعنى " الخلاق ". و فنه هذا هو روحنة العالم. فالقلب الطاهر يطهر العالم. العالم كله هو مكان لممارسة روحانية الإنسان. " خطيئته " الأساسية هي الحوار مع الدنيا دنيوياً، و " حياته " هي الحوار مع الله من خلال هذا العالم روحياً. هذه هي الرغبة الحقيقية للقلب البشري. لذلك علينا أن نتوقع في أية حالة استخدام خاطئ خطيئة عودة توبة قوية.

لم تتعاط المصرية مع العالم فقط دنيوياً، بل و مع المقدسات أيضاً. هكذا بلغت فيها قوة الفجور أن تقصد اللذة في رحلة مع حجاج قصدوا الصليب للتكريم و السجود و البركة. لكن الفجور لا يمكنه الصمود أمام شعاع الروح. رافقت الحجاج في رحلة دعارة، لكن قلبها جمد أمام باب الهيكل. بينما كانت هي تخدع قلبها تمسك هو بعشقه الحقيقي أمام خشبة الصليب. مهما ضغطنا على قلبنا لن نقدر أن نقتل فيه طبيعته و عشقه للإلهيات عندها تحوّلت قوة الفجور الى طاقات توبة. قضت عشر سنوات تضلل قلبها بلذات لا ترويه، لكنها أروت عطشها في سبعة و أربعين سنة من النسك، بالأصوام و الصلوات.

فلنحرر قلبنا و لنعطه ما يحبه فعلاً. " إعرف ذاتك " يقول القديس باسيل. إعطها طعامها الحقيقي. ليست التوبة نقلة من راحة إلى أتعاب، بالعكس التوبة تحرر. قد تكون لحظة التوبة قاسية و ذلك بمقدار عمق الأوحال، لكنها استراحة لقاء العاشق بالمعشوق.

يمكن للقلب البشري أن يكون مسرحاً لعشاق عديدين، تختارهم الحرية البشرية. لكن قد جال عشيقان في قلب هذه المصرية: الدنيا و الله. لكن قلبها لم يرتح إلا في خالقه و مبدعه و معشوقه الحقيقي.

التوبة هي عيش الحب الحقيقي للإنسان.

أمين

المتروبوليت بولس صليبيا

